الفصل السابع

انهيار إسرائيل من الداخل

القرار من الخدمة العسكرية

الجيوب الاستيطانية تم غرسها فى إفريقيا وآسيا عن طريق الاستعمار الغربى لاستيعاب الفائض البشرى فى القارة الأوربية، ولتكون قواعد للدفاع عن المصالح الغربية فى آسيا وأفريقيا. وينتمى الجيب الاستيطانى الصهيونى لهذا النمط، فقد أسِّس ليستوعب الفائض البشرى اليهودى ولوضع حل للمسألة اليهودية، وفى الوقت نفسه عليه أن يقوم بحماية المصالح الغربية نظير الدعم العسكرى والسياسى والمالى الذى يقدمه له الغرب. والجيوب الاستيطانية تفرض على سكان آسيا وإفريقيا بحد السلاح الغربى، ولذا فوجودها يستند إلى القوة العسكرية التى تحاول طرد السكان الأصليين أو قمعهم، ولتحقيق الحد الأدنى من الطمأنينة لجماهير المغتصبين. والقوة العسكرية الصهيونية تنتمى لهذا النمط، وقد أحرزت قدرًا لا بأس به من النجاح والشرعية أمام جماهير المستوطنين.

وكانت العسكرية الصهيونية قد نجحت فى أن ترسخ فى وجدان الإسرائيليين فكرة أن إسرائيل دولة صغيرة تدافع عن نفسها ضد هجمات جيرانها العرب، بل إن الأيديولوجية الصهيونية تجعل اليهود شعبًا مختارًا (بالمعنى الدينى والعلمانى) وتخلع القداسة على كل ممتلكات الدولة، وبخاصة حدودها، كما تخلع القداسة على الجيش حتى إنه وُصف بأنه القداسة بعينها. وقد وصف بن جوريون الجيش بأنه خير مفسر للتوراة، فمفسر التوراة هو وحده القادر على تعريف حدود إسرائيل. ومن ثم اكتسبت الخدمة العسكرية قداسة خاصة. إلى جانب هذا كانت الخدمة العسكرية السبيل لدخول النخبة الحاكمة، ففى المجتمع الاستيطانى، لابد أن يدفع الفرد ضريبة الدم ليصبح جديرًا بالاشتراك فى الحكم وصنع

القرار. ولذا كان يتم تجنيد الشباب الإسرائيلى بنجاح شديد، عن طريق التوجه إلى حسّهم الأخلاقى والقومى والدينى، ورغبتهم فى البقاء باعتبار أن الدفاع عن الذات رغبة إنسانية أخلاقية مشروعة، وباعتبار أن العرب يهددون البقاء الإسرائيلى نفسه. ومما دعَّم كل هذه الادعاءات انتصارات إسرائيل المتتالية الحاسمة التى ضمنت للمستوطنين البقاء وتدفق المعونات من الخارج واستمرار الأساطير الصهيونية.

وحتى فترة قريبة كان التطوع فى صفوف قوات النخبة (وحدة المظليين) يعتبر من الأعمال المرموقة. حتى إن هذه القوات كانت تضطر فى الماضى إلى الاعتذار لعدد من الراغبين فى التطوع لوجود ما يكفيها من العناصر. وقد سجلت حالات انتحار فى الماضى، من جانب الشباب الذى كان لا يستطيع الالتحاق بالقوات المسلحة.

غير أن الوضع قد تغيَّر، وقد لوحظ مؤخرًا انصراف الشباب من المستوطنين الصهاينة عن الخدمة العسكرية، بل الفرار منها. فأشار إسحق مردخاى (أحد وزراء الدفاع السابقين) إلى أنه قد طرأ انخفاض حاد على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية فى صفوف الشباب الإسرائيلى.

وفى إحصاء عام ٢٠٠٠ تساءل أحد كبار الضباط عن شرعية قيام الجيش بتجنيد إلزامى بينما ٢٠٪ من الشباب لا يتم تجنيدهم، وحوالى ٢٠ - ٢٥٪ يهربون أثناء الخدمة (ملحق هآرتس ٢٦ مايو ٢٠٠٠). وفى إحدى استطلاعات الرأى صرَّح ثلث الشباب الإسرائيلى أنه إن أتيحت لهم الفرصة أن يتحاشوا الخدمة العسكرية الإجبارية (التى تستغرق ثلاث سنوات) فعلوا ذلك. ويعتمد الجيش الإسرائيلى على نظام الاحتياط فيقوم باستدعاء جنود الاحتياط (الذين بلغ عددهم عام ١٩٩٦ حوالى ٤٢٩,٠٠٠) مرة كل عام لمدة شهر حتى سن الخمسين لإعادة تدريبهم. وقد لوحظ أن حوالى الثُلث يتغيبون. ويطلقون الآن فى إسرائيل على الذين يؤدون خدمة

الاحتياط الكلمة العبرية «فرياريم» والتى تعنى «البلُهاء». وأثناء الصدام الذى وقع بين الجيش الإسرائيلى وسكان نابلس فى سبتمبر ١٩٩٦ استدعت إحدى فرق الاحتياط الجنود التابعين لها والبالغ عددهم ٣٤٠، فلم يحضر سوى ٦٠، ولم يبق منهم سوى ثلاثين. وقد رفض أحدهم الذهاب للضفة الغربية (عدد المجندين الذين يرغبون فى الخدمة فى الأحداث القتالية يتراجع ليصل إلى ٥٪ من عدد المجندين).

وقد نشرت هاآرتس فى ملحقها الذى سبقت الإشارة إليه إحصاءات دقيقة عن هذا الموضوع:

* فى عام ١٩٩٨ أعرب ٦٥٪ من البنين ممن تتراوح أعمارهم بين ١٣، ١٨ سنة عن استعدادهم للخدمة فى الوحدات القتالية، أما فى عام ٢٠٠٠ فقد هبطت النسبة إلى ٥٣٪.

* وفى عام ١٩٩٨ أعلن ٢٣٪ تفضيلهم للخدمة بالقرب من منازلهم، أما فى عام ٢٠٠٠ فقد ارتفعت نسبتهم إلى ٣٤٪.

* وفى عام ١٩٩٨ أعلن ١٪ من البنين فقط أنهم لا يرغبون فى أداء الخدمة، أما فى عام ٢٠٠٠ فقد ارتفعت نسبتهم إلى ٦,٢٪.

* وكلما كانت أعمار المشاركين فى الاستطلاع ترتفع - أى كلما كانت مسألة الخدمة العسكرية بالنسبة أقل نظرية وأكثر واقعية - كان موقفهم أكثر سلبية. وهكذا فعلى سبيل المثال أعلن ٥,٥٪ فقط من الأبناء الذين تراوحت أعمارهم ١٣/ ١٤ سنة عن رغبتهم فى عدم الالتحاق بالخدمة العسكرية مقابل ٦,٦٪ من الأبناء الذين تراوحت أعمارهم بين ١٧ : ١٨ سنة.

* بالنسبة للبنين ممن تراوحت أعمارهم بين ١٣ : ١٤ سنة فقد أعرب ٥٥,٨٪ ممن شملهم الاستطلاع عن رغبتهم فى أداء الخدمة بوحدة قتالية مقابل ٤٧,٩٪ فقط من البنين ممن تراوحت أعمارهم بين ١٧ : ١٨ سنة.

* اتضح أنه كلما كان المستوى الاجتماعى والاقتصادى لمن شملهم الاستطلاع منخفضًا كان الدافع لديهم منخفضًا كثيرًا. فقد أبدى أقل من ٣٠٪ ممن يعتبرون من الطبقة الاجتماعية والاقتصادية ذات المستوى المنخفض رغبتهم فى أداء الخدمة بوحدة قتالية مقابل أكثر من ٦٥٪ ممن يعتبرون من الطبقة العليا.

وقد ظهرت حركة شبابية فى إسرائيل تسمّى «بروفايل جديد» وهى حركة مستقلة تأسست فى أكتوبر ١٩٩٨ وهدفها العمل على إلغاء التجنيد الإلزامى وتقوم الحركة بعقد ندوات للشباب حول قضية الخدمة العسكرية وتجمعات احتجاجية من أجل رافضى الخدمة. كما أن أعضاء هذه الحركة يساعدون الشباب الراغب فى الامتناع عن أداء الخدمة أو التسريح من الجيش سواء لأسباب تتعلق بالوضع الاقتصادى لأسرهم أو لأسباب أيديولوجية أو لمجرد عدم الرغبة في الخدمة. ويزعم أعضاء هذه الحركة أن أفكارهم نالت تأييدًا كبيرًا خلال العامين والنصف الماضيين. فحينما أسّست الحركة كان بها حوالى ١٥٠ عضوًا ولكنها تضم الآن مئات الأشخاص مما يدل على شرعيتهم المتزايدة يشير عدد من أعضاء الحركة إلى أن إحدى المشتركات فى أنشطة الحركة هى رونى بن عامى قرينة شلومو بن عامى (وكان من أهم الوزراء فى حكومة باراك).

كل هذا يعنى أن الظاهرة لم تستقر بعد، وأن المنحنى آخذ فى التصاعد، وهذا يثير إشكالية كبيرة بالنسبة للجيب الاستيطانى الصهيونى، ذى المهمة القتالية، وبخاصة مع اندلاع انتفاضة الأقصى المباركة.

وظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية ظاهرة خطيرة فى أى مجتمع، وتزداد خطورتها فى مجتمع استيطانى، يتهدده السكان الأصليون، ويواجه مشكلة أمنية فى علاقته بجيرانه، وأوكل له مهمة قتالية من قِبَل أولياء

نعمته. ومع هذا يجب أن نشير إلى أن القضية - رغم خطورتها - لم تُثر في المجتمع الإسرائيلي على نطاق واسع لأسباب عملية منها: أن الجيش الإسرائيلي يفضل أن يستبعد مثيرى المشاكل ويتركهم وشأنهم حتى لا تُثار القضية وحتى لا يناقشها الرأى العام. وبينما كان الجيش في الماضي ينشر استطلاعات الرأى الخاصة بالرغبة في الخدمة في الوحدات القتالية في الجيش، نجد الآن أنه توصل إلى نتيجة مفادها أن كثرة النشر حول انخفاض الدافع له أثر سلبى واضح، ولذا آثروا الصمت.

ويبدو أن من أهم أسباب الإعفاء من الخدمة العسكرية هو الأمراض النفسية، ويشير اللواء فينوعام لاوفر إلى أنه لو أقيمت عيادة نفسية تضم ١٠ أطباء فإنه بعد فترة سيكون عندهم من الحالات النفسية الكثير والكثير. هذا يعنى أن الأمراض النفسية في تزايد في إسرائيل، ومن ثم الإعفاءات العسكرية. ولكن اللواء يسارع بنفى ذلك بقوله «إن القدرة التشخيصية للأمراض النفسية (وليس الأمراض النفسية ذاتها) قد تزايدت». ولذا فهو يرى أن العيادات النفسية الكثيرة لا ضرورة لها. واللواء لاوفر عنده مطلق الحرية أن يفسر الأمور كما يراها هو، ولكن ما أتى به من حقائق تتحمل تفسيرات أخرى غير التى أوردها، ولعل أقربها للواقع أن حالة الحرب المستمرة التى يعيشها المستوطن الصهيونى أمر لا يتحمله الجهاز العصبى للإنسان، ولذا تتزايد الأمراض النفسية (وهو ما تؤيده كثير من الدراسات العلمية).

□□□

سقوط نظرية الأمن الإسرائيلية

يبدو أن المجتمع الإسرائيلى قد أصبح أكثر تسامحاً تجاه المتهربين من الخدمة العسكرية، ولا يفرض عليهم أية عقوبات. خذ على سبيل المثال حالة سيرجى سندلر البالغ من العمر ٢٣ عامًا، وهو طالب يدرس الفلسفة

فى جامعة بن جوريون ويصف نفسه بأنه يعشق السلام وينبذ العنف. سُرِّح سندلر هذا من الجيش بعد أن أودع السجن العسكرى فى أواخر عام١٩٩٤. ولكن ماذا حدث له بعد ذلك؟ يعلق سندلر على وضعه قائلاً: «لقد كنت واثقًا بما فيه الكفاية بأننى حكمت على نفسى بالمقاطعة الاجتماعية لعدم خدمتى بالجيش، ولكن اتضح لى أن المجتمع الإسرائيلى قد تغيَّر وبسرعة خلال السنوات الخمس الماضية. إن وصم أولئك الذين يرفضون الخدمة بالخزى والعار لم يعد موجودًا. وأشعر بأن نظرة التقديس التى كان المجتمع يُكنها لجيش الدفاع قد اختفت. كما أن المولعين بالجيش قادرون على قبول أيديولوجيتى واحترامى ويفهمون أنهم يلتحقون بالخدمة العسكرية لأنهم يؤمنون بها وأنا لم ألتحق بها لأننى لا أؤمن بها» (ملحق هآرتس ٢٦ مايو ٢٠٠٠).

وقد أشرنا فى المقال السابق إلى قرينة شلومو بن عامى (الوزير الإسرائيلى السابق) وعضويتها فى جمعية «بروفايل جديد» التى تقف ضد الخدمة العسكرية، ويمكن أن نشير هنا إلى أحد أبطال التهرب من الخدمة العسكرية، وهو أفيف جيفين، ابن شقيقة موشى ديان. ويُعدُّ جيفين من أشهر المغنين الشباب فى إسرائيل، ويُقال إنه يشبه فى ملامحه وحركاته مايكل جاكسون. وقد ظهر قبل سنوات فى التليفزيون وهو يتحدث عن كيفية حصوله على الإعفاء من الخدمة لأسباب نفسية. وقد انتهى به الأمر إلى الهجرة إلى بريطانيا بعد أن تقدم بطلب مسبب للهجرة ذكر فيه أنه يهاجر بسبب «سرطان الاحتلال».

ومن الأسباب الأخرى التى تؤدى إلى الفرار من الخدمة العسكرية النقاش الدائر حول مسألة تجنيد طلبة المدارس الدينية. فعند إعلان الدولة تم إعفاؤهم من الخدمة العسكرية، تحت ضغط الأحزاب الدينية ولكن

عددهم حينذاك كان لا يتجاوز ٤٠٠. ولكن عام ١٩٩٧ كان عددهم يزيد عن ٢٩,٠٠٠، ولعله زاد الآن عن ثلاثين ألفًا. ومع تزايد علمنة المجتمع الإسرائيلى وتزايد استقطابه بدأت أصوات الاحتجاج على هذا الوضع تتزايد، ولكن الأهم من هذا، وجود هذا العدد الضخم من الشباب الذين يرفضون الخدمة فى الجيش استنادًا إلى أسباب دينية يهودية، يسبغ قدرًا كبيرًا من الشرعية على الفرار من الخدمة العسكرية.

وقد ذكرنا حتى الآن عدة أسباب تؤدى إلى الفرار من الخدمة العسكرية، ولكن يمكننا القول: إنها كلها جانبية إذا ما قورنت بهذين السببين المنفصلين المتصلين.

١ - سقوط نظرية الأمن الإسرائيلية.

٢ - سقوط الأيديولوجية الصهيونية وتصاعد معدلات العلمنة والاستهلاكية والأمركة.

ولنبدأ بالعنصر الأول. هناك دوافع كثيرة تدفع الإنسان للقتال من أهمها الرغبة فى البقاء، وهى رغبة قد تأخذ شكلاً اجتماعيًا وقد تأخذ شكلاً فرديًا. فيمكن أن يُعرِّف الفرد نفسه بأنه عضو فى جماعة وبالتالى يتوحد بقاؤه مع بقاء الجماعة. وتصبح شعارات مثل «الدفاع عن الوطن» - «حفظ الكرامة القومية» - «حدود الأرض المقدسة» لها معنى ومضمون. ولإنجاز ذلك لابد للمجتمع أن يقدم للفرد أيديولوجية تفسر له ما حوله وترسم له ماضيه وحاضره ومستقبله بطريقة ترضيه وتقنعه أنه يمكنه أن يحقق ذاته من خلالها.

ولكن إن لم يقتنع الفرد بالأيديولوجية المهيمنة، فإن كل الشعارات السابقة تصبح سخيفة طنانة، ويبدأ الفرد فى تعريف بقائه على أنه بقاء

فردى لا علاقة له بالمجتمع، وبالتالى يبحث عن منفعته الشخصية وعن متعته الفردية، بغض النظر عن التكلفة الاجتماعية.

وقد حدث شىء من هذا القبيل فى المجتمع الاستيطانى الصهيونى. وقد ذكرنا فى مقال سابق أن المؤسسة العسكرية الصهيونية أقنعت الشباب الإسرائيلى أن حربهم ضد العرب هى حرب دفاع عن النفس وأنه لا خيار لهم فى ذلك. حتى إن أحدهم قال إن شعار الجندى الإسرائيلى هو أنه «يجب أن تطلق النار على عدوك، ثم فلتذرف الدمع ساخنًا. حتى يمكن للجندى الإسرائيلى المسكين أن يحتفظ بنقائه الداخلى! كما كانوا يتحدثون عن «طُهر السلاح الإسرائيلى»، فهو سلاح لا يُستخدم إلا فى الدفاع عن النفس وليس لقتل الأبرياء.

كان هذا الوضع سائدًا حتى عام ١٩٦٧ حين وصلت «الانتصارات» الإسرائيلية إلى ذروتها ولكنها لم تأت لا بالسلام ولا بالنصر، كما أثبتت نظرية الأمن الإسرائيلية فشلها، فهى كانت قد أقنعت الإسرائيليين أن استعمال القوة سيحقق له الانتصار النهائى والأمن الدائم وأن العمليات العسكرية السريعة الإجهاضية ستحقق كل شىء. ولكن بعد بضعة شهور وجد الإسرائيليون أنفسهم فى حرب استنزاف مع عدوهم المهزوم، الأمر الذى دعا المؤرخ الإسرائيلى يعقوب تالمون للحديث عن «عُقم الانتصار». ثم جاءت حرب ١٩٧٣ والعبور العربى العظيم، وبعدها جاء غزو لبنان، وهو «انتصار» إسرائيلى آخر عقيم جعل الإسرائيليين يتحدثون عن «المستنقع اللبنانى» الذى غرقوا فيه، ثم أخيرًا اضطروا للانسحاب من الجنوب اللبنانى فى جنح الظلام، ثم هناك انتفاضة عام ١٩٨٧، وأخيرًا انتفاضة الأقصى، وحين استخدمت القوات العسكرية الإسرائيلية فى ضرب المواطنين العُزّل.

وقد استنتج الشباب الإسرائيلى من كل هذا ما يلى:

١ - أدرك المستوطنون الصهاينة أن ذاكرة العرب حية وأن ذراع الدولة الصهيونية الاستيطانية العسكرية القوية لا يمكن أن تضعهم فى برج حصين ولا أن تقدِّم لهم الحماية طوال الوقت.

٢ - أدرك كثير من الشباب الإسرائيلى أن الدولة الصهيونية ليست فى حالة دفاع عن النفس كما يقولون وإنما هى دولة عدوانية. ففى حرب لبنان على سبيل المثال أعلنت المؤسسة العسكرية أن الهدف من عملية سلام الجليل هو هدف دفاعى حتمى لوقف ما يسمونه الهجمات الفدائية وتطهير مساحة ٦٧ كيلو متر مربع من لبنان. ثم ظهر أن الهدف الحقيقى كان هو فرض حكومة وظيفية عميلة فى لبنان تحت حماية إسرائيل. وقد أدَّى هذا إلى تداعى الإجماع القومى الإسرائيلى. كما أن استمرار الاحتلال فى الضفة الغربية لما يزيد على عشرين عامًا كان من الصعب الدفاع عنه باعتباره دفاعًا عن النفس.

٣ - استُخدمت قوات الاحتلال الإسرائيلية فى قمع المدنيين إبَّان انتفاضة ١٩٨٧ (ثم انتفاضة الأقصى)، وهو أمر يصعب تفسيره أو تبريره أو تصويره على أنه دفاع عن النفس، إلى جانب أن استخدام القوات العسكرية النظامية فى ضرب المدنيين يفقدها كثيرًا من احترامها لنفسها وانضباطها.

٤ - مع تراجُع احتمالات الحرب بين العرب والمستوطنين الصهاينة (بعد توقيع شتى معاهدات السلام) أصبح الحديث عن العمليات العسكرية الإسرائيلية باعتبارها دفاعًا عن النفس أمرًا مستحيلاً، خاصةً وأن المؤسسة الصهيونية تردد شعارات السلام بشكل مُبالغ فيه أحيانًا (رغم معرفتها باستحالة تحقيقه)، حتى تُدخِل الطمأنينة على قلب المستوطنين، وتوهمهم أن النهاية عند المنعطف المقبل وأن الأمن المطلق مسألة أيام أو شهور.

٥ - لا شك فى أن زيادة معدلات العلمنة والعولمة والسعار الاستهلاكى لا تساعد كثيرًا على تصعيد روح القتال. كما أن جو الخصخصة العام السائد فى إسرائيل يزيد تمركز الفرد حول نفسه ويجعله يضع نفسه قبل المجتمع.

٦ - واكب كل هذا تآكُل الأيديولوجية الصهيونية. فهى لم تعد الإطار الفكرى الذى يفسر للمستوطنين واقعهم ويبرر وضعهم القتالى.

باختصار شديد إن الأيديولوجية الصهيونية ما عاد لها مجال فى المجتمع الصهيونى ولم يعد الشباب الإسرائيلى يقتنع بها. لكل هذا صرح وزير الدفاع (السابق) إسحق مردخاى أن انخفاضًا حادًا طرأ على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية فى صفوف الشباب الإسرائيلى. ثم أضاف: «يعتقد البعض أننا وصلنا مرحلة الراحة، والبعض الآخر يرى أننا يجب ألا نساهم بكل جهودنا فى الدفاع عن إسرائيل».

ولعل خطاب العريف إيال روزنبرج إلى الكولونيل شاؤول شاهار يلخص موقف كثير من الشباب الإسرائيلى».. لم تساورنى من قبل فكرة رفض التجنيد، فكل أصدقائى مجنَّدون، وكل أفراد عائلتى المولودون فى إسرائيل جُنِّدوا وهم فى مثل سنى. وقد حرص والداى على غرس عقيدة التجنيد فى نفسى، لأنها فى رأيهما، سلوك إيجابى ينبغى أن يُقبل دون نقاش.. مر الوقت ثقيلاً، وانتهت فترة التدريب.. ولكن الكارثة المعرفية التى خلفتها بداخلى بدأت تتحرك فى اتجاه مخالف، إلى نوع من التأمل الذاتى لفهم ما يدور حولى، تأمل فى طبيعة «جيش الدفاع الإسرائيلى» وفى الأنظمة الاجتماعية والسياسية التى قذف بنا داخلها.. وعندئذ وجدت نفسى أشك فى جميع افتراضاتى الرئيسية عن ضرورة وجود الجيش الإسرائيلى، وكذلك فى قيمة الخدمة العسكرية، وفى مصداقية القيم التى يتفاخر بها الجيش الذى يسمى نفسه «جيش الدفاع».

إنه الجيش الذى ذبح الآلاف بل عشرات الآلاف من الفلسطينيين خلال عام ١٩٤٨ وطرد وطارد مئات الآلاف، وهو الجيش الذى ساهم فى تنظيم الهجمات الإرهابية الفاشلة خلال فترة تولى موشى شاريت رئاسة الوزارة.. وسعى إلى استعادة سيطرة القوى الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية على قناة السويس أثناء حرب ١٩٥٦. وهو الجيش الذى هاجم وضرب بالقنابل وذبح كثيرًا من الجنود والمدنيين فى الأردن ومصر وسوريا على مدار العشرين عامًا الأولى من إقامة دولة إسرائيل. وهو الجيش الذى طرد قاربة ١٣٠ ألف سورى من أرضهم فى مرتفعات الجولان عام ١٩٦٧ والتى يحتلها إلى الآن، والذى يُخضع أكثر من مليون فلسطينى فى قطاع غزة وغيرها لاحتلاله الدموى الغاشم منذ عام ١٩٦٧، ولايزال يمارس نفس إجراءاته القمعية فى معظم الأراضى المحتلة، يُدمر ويذبح المواطنين المدنيين بل توقف حتى هذه اللحظة. وهو الجيش الذى قتل آلاف المواطنين اللبنانيين والفلسطينيين، وجرح ما يقرب من ٣٠٠ ألف مواطن على مدار العشرين عامًا الأخيرة فقط.. كل هذا بدعوى حماية مستوطنات شمال إسرائيل.. الجيش الذى يساند ويدعم إقامة المستوطنات فى الأراضى المحتلة، ويسعى إلى بقائها فى وجه المقاومة الشعبية.. الجيش الذى يفسد ويشوه أرواح من يخدمون فيه، لدرجة أنهم يضعون مصالح القادة الشخصية ومصالح النظام العسكرى فوق مصالحهم ومصالح أصدقائهم. ومع ذلك، فإنه يواصل زعمه بأنه «جيش الدفاع»، وبأنه يحفظ «نقاء الجنود»، وبأنه «جيش الشعب»..

وبناءً على ما تقدم، فإننى أعلن لكم رفضى التام لأن أخدم فى جيش الدفاع الإسرائيلى، بأية طريقة، بأى موقع، فى أية وحدة، بأية رتبة،

فى أى زمن، وتحت أى ظـرف مـن الظـروف. وأطـالب فـى الوقـت نفسـه بأن تعتبرنى السلطات الإسـرائيلية مواطنًـا عاديًـا لم يعـد هنـاك مـا يربطـه بجيش الدفاع.

(المصدر: Indymedia News, 10 December 2000).

ولكن من المفارقات التى تستحق التسـجيل والملاحظـة، أن هـذا الجيـل الجديد الذى يفر من الخدمة العسكرية ولا يكترث بـهـا، هـو جيـل «أكـثر عسكرية» كمـا يقـول أفينـيرى شـاليط (أسـتاذ العلـوم السياسـية بالجامعـة العسكرية). وقد وُلِد أعضاء هذا الجيل فيمـا يسـمَّى «أرض إسـرائيل» ولـذا فهم يعتقدون تمام الاعتقاد أن الاحتلال بالقوة «مسألة طبيعيـة» وأن الضفـة الغربيـة ليسـت «أرضًـا محتلـة» (أوكيوبـايد occupid) وإنمـا أرض قوميـة توراتية ومن ثم فـهى أرض «متنـازع عليـها» (ديسـبيوتيد disputed – كمـا يقول المصطلح الأمريكى) وعلى اليهود الاحتفاظ بها ولا يحـق لهـم التنـازل عنها أو التفاوض بشأنها. والعرب هنا هم «عرب يهودا والسامرة»، وبالتالى «خرق حقوقهم» لا يشكل مشكلة خلافية بالنسبة لهم.

□□□

الرأس الصغيرة والمعدة الكبيرة

أشـرنا مـن قبـل إشـارة عـابرة إلى أن تـأكُل الأيديولوجيـة الصهيونيـة باعتباره أحد أسباب الفرار من الخدمة العسكرية. وحيث إن هذا البُعد هـو فى واقع الأمر أهم الأسباب طُرًا، فإن الأمر يتطلب شيئًا من الإفاضة.

أخبرت الصهيونية الشباب الإسـرائيلى أنـهم طليعـة الشـعب اليـهودى المضطـهد، وأن غالبيـة أعضـاء هـذا الشـعب سـتهرع إلى الدولـة اليهوديـة فور إعلانها، وهـو مـا لم يحـدث حتى الآن، لأن غالبيـة أعضـاء الشـعب «المضطهد المنفى» لا تـزال متشبثة «بمنفاهـا»! كمـا أخبرتـهم الصهيونيـة

أن العرب لا وجود لهم وأن فلسطين أرض بلا شعب، وإن وُجدوا فيمكن تهميشهم وتهشيمهم عن طريق القوة، وهو ما أثبتت الأعوام السابقة عبثيته.

باختصار شديد لم يعد الشباب الإسرائيلى يتأخذ الأيديولوجية الصهيونية على محمل الجد. والجدير بالذكر أن عدد هؤلاء آخذ فى الازدياد نظرًا لازدياد عدد المهاجرين إلى إسرائيل (وبخاصة من روسيا). ودافع الهجرة عند هؤلاء دافع اقتصادى محض لا تشوبه أية شوائب أو ادعاءات أو مثاليات صهيونية.

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودى المثالى (أى المجتمع الصهيونى) كجزء من مشروع حضارى متكامل يهدف إلى تطبيع الشخصية اليهودية. والتطبيع هنا يعنى الشفاء من عقلية الاستجداء الاقتصادى من الغير أو الأغيار ومن الاعتماد السياسى عليهم، كما يعنى عدم الانغماس فى أعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة والتحول إلى شعب يهودى منتج بمعنى الكلمة يسيطر على كل مراحل العملية الإنتاجية، وبالتالى على مصيره الاقتصادى والسياسى.

لكن، وبعد مرور ما يقرب من خمسين عامًا على تأسيس الدولة الصهيونية، يمكن القول بأنها أبعد ما تكون عن قصة النجاح الموعود. أما على مستوى السيادة السياسية، فالمستوطن الصهيونى يضطر دائمًا - نتيجة وضعه - للاعتماد على قوة خارجية تضمن له البقاء والاستمرار من خلال الدعم العسكرى والسياسى المستمرين، وهو ما يفرغ مفهوم السيادة من مضمونه تمامًا.

والدعم الاقتصادى للدولة الصهيونية يحل مشاكلها الاقتصادية ولكنه تذكير يومى للمواطن الإسرائيلى بأن الصهيونية لم تنجح فى تطبيع اليهود

وفى شفائهم من أمراض المنفى. فالمُستوطن الصهيونى أصبح شخصية استهلاكية، ولم يتحول إلى شخصية منتجة يعمل بيديه ويتواجد فى مختلف المراحل الإنتاجية.

والفشل الأيديولوجى وتأكل الأيديولوجية يُولّد ما يُسمَّى «أزمة المعنى». وعادةً ما تؤدى أزمة المعنى إلى إحساس بالعدمية يحاول الإنسان التغلب عليه من خلال الاستغراق فى عنصر مادى بشكل كامل (شرب المخدرات - الإباحية - الاستهلاك) يبحث الإنسان من خلاله عن قدر من الثبات والتوازن إن لم يكن من اليقين. لكن ما يحدث هو العكس إذ أن تصاعُد الاستهلاك وإغراق الحواس فيه يزيد أزمة المعنى بدلاً من تهدئتها، ويزداد بذلك تأكُل الأيديولوجية وتقويضها.

ولكن ما يهمنا فى هذا السياق أن التأكُل الأيديولوجى يؤدى إلى أن ينكفئ المستوطن على نفسه، ويبحث عن بقائه الشخصى وعن خلاصة من خلال التوجه الحاد نحو اللذة. وما يزيد من هذا التوجه نحو اللذة حدة ما نسميه الانتقال من مرحلة التقشف التراكمية (التى امتدت من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧) إلى مرحلة الاستهلاك الفردوسية. ففى الفترة الأولى التقشفية كان المستوطنون الصهاينة يعيشون حياة تقشفية يزرعون ويأكلون وينظمون أنفسهم تنظيمًا عسكريًا صارمًا، تحسبًا لهجوم السكان الأصليين عليهم بعد الاستيلاء على أرضهم وإبادة بعضهم. وقد واكب ذلك ضبطًا للنفس وإنكارًا للذات، بل التضحية بها.

ولكن كل هذا كان يتم، منذ البداية، باسم الهدف النهائى والقيمة المرجعية النهائية، أى تحقيق الذات وتعظيم اللذة، وكل ما كان يتم من إرجاء للإشباع وتقشف حاد كان يتم باسم الاستهلاك الآجل، خاصةً وأن المستوطن الصهيونى، رغم كل الادعاءات الأيديولوجية اقتُلع

من وطنه واستوطن فى أرض مغتصبة بحثًا عن الحراك الاجتماعى والرفاهية الاقتصادية.

ولهذا فحينما حققت إسرائيل انتصارًا عام ١٩٦٧، أى بعد نحو ٢٠ عامًا وحسب من تأسيس الدولة، تفجرت الرغبات الاستهلاكية وزاد النزوع نحو اللذة وارتفعت التوقعات وانخفضت المقدرة على التحمل إذ شعر المستوطنون الصهاينة أن المرحلة التقشفية قد انتهت وأن الوقت قد حان لدخول مرحلة الاستهلاك والسلع المستوردة، وهذا يعنى أن ارتفاع معدلات العلمنة فى المجتمع أدّى إلى اكتساح القيم، والمطلقات كافة، ومعها المطلق الصهيونى نفسه وسائر آليات ضبط النفس التى تتم فى إطاره، وذلك قبل أن يضرب المجتمع بجذوره وقبل أن يؤسّس بنيته التحتية. ولذا، تزايدت معدلات الأمركة فى المجتمع، وضَعُفت مقدرة المستوطنين على تحمُّل المشاق. ومع تَفجُّر الانتفاضة تصاعدت حدة أزمة المجتمع الصهيونى.

لكل هذا تغيَّرت الأنماط الإدراكية فى المجتمع فتراجع نموذج الكيبوتسنيك (عضو الكيبوتس) المتقشف المحارب وظهر نموذج روش قطان، أى المواطن ذو الرأس الصغير والمعدة الكبيرة الاستهلاكى الرخو، وظهر مجتمع الـ 3V: الفولفو والفيديو والفيلا.

ونظرًا للتوجُّه نحو اللذة فى التجمُّع الصهيونى نجد أن المفهوم القديم للمستوطن الصهيونى باعتباره رائدًا يمسك المحراث بيد والبندقية بالأخرى قد تآكل، وظهر نوع جديد من المستوطنين الذين يبحثون عن الحراك الاجتماعى وعن رفع مستوى معيشتهم. ولذا يُلاحَظ أن المستوطنات الجديدة فى الضفة الغربية مختلفة عن المستوطنات القديمة، فلا توجد فيها أى مظهر من مظاهر التقشف وإنما توجد فيها منازل فاخرة وحمامات سباحة وكل أشكال الرفاهية. والدعوة إلى الاستيطان فيها لا تأخذ شكل

شعارات دينية أو حتى شبه دينية ولا أيديولوجية (أو حتى شبه أيديولوجية) وإنما هى دعوة سافرة للاستهلاك، فإحدى الإعلانات تتحدث عن فيلا واسعة، فى موقع جميل، بنصف ثمن الفيلات المماثلة داخل حدود ٦٧ ولكنها مع هذا تقع على بُعد ثلاثين دقيقة من وسط القدس ونتانيا وتل أبيب.

ومما يساعد على تفشى النزعة الاستهلاكية ظاهرة الأمركة، والأمركة هى أسلوب حياة جوهره اتخاذ موقف برجماتى ينصرف عن الكليات والمبادئ ليركز على التفاصيل وحل المشاكل المباشرة، ويعتمد العنف آلية أساسية من آليّات حل الصراع، ويركز على الفرد بالدرجة الأولى وتأكيد ضرورة الإشباع الفورى.

والأمركة مرتبطة تمام الارتباط بالعولمة التى لها نفس الأثر فى التجمُّع الصهيونى، فالإنسان الذى يفقد جذوره الإثنية والدينية يميل بشكل أكبر نحو الاستهلاك، لأن استهلاك السلع يصبح السبيل إلى تحقيق الفردوس الأرضى. وفى إطار العولمة تصبح السلع العالمية (أى الأمريكية) هى رمز هذه الجنة الجديدة.

وهذه الظواهر موجودة فى كل المجتمعات ولكن أثرها السلبى أعمق فى التجمُّع الصهيونى لأنه مجتمع يستند عقده الاجتماعى إلى أيديولوجية تشكل الهوية عصبها وعمودها الفقرى.

ويرتبط بكل هذا الاتجاه نحو الخصخصة، فالخصخصة تعنى أن نقطة البدء هى الفرد وليس المجتمع، وأن المشروع الفردى يسبق المشروع القومى. ومثل هذا الموقف يزيد بغير شك حدة السعار الاستهلاكى. وللخصخصة أعمق الأثر فى التجمُّع الصهيونى باعتباره تجمُّعًا استيطانيًا لابد أن ينظم نفسه تنظيمًا جماعيًا ليضمن لنفسه البقاء والاستمرار أمام

مقاومة أصحاب الأرض. ولاشك أن كون المجتمع الصهيوني مجتمع مهاجرين يعني أن هناك دائمًا جماعات بشرية جديدة، تفد على المجتمع وتصعد من سعاره الاستهلاكي.

في هذا الإطار وُلِدت الحساسية الجديدة لدى الشباب الإسرائيلي، فهو - على حد قول المعلق السياسي الإسرائيلي يوئيل ماركوس - لا يفكر إلا في ذاته. والأيديولوجية الصهيونية لا تعنى الكثير بالنسبة له، فهو منخرط في حياته اليومية وفي مجتمعه المترف الذي لم تشهده إسرائيل في أي وقت سابق. لقد أصبحت النزعة الفردية وكذلك النزعة المالية هما المسيطرتين على المجتمع الإسرائيلي. وتحولت إسرائيل من بلد كان يقدس الجماعية إلى بلد يقدس الفردية، ومن بلد تتحد كل صفوفه لتطبيق المشروع الصهيوني إلى بلد تغذيه الفردية والمادية من كل جانب.

لقد تراجعت الدوافع الاجتماعية للخدمة العسكرية وأصبح الدافع الأساسي هو الراتب حتى إنه في بداية عام ١٩٩٩ هدَّد الطيارون العسكريون الاحتياط بالإضراب إلا إذا حصلوا على بوليصة تأمين شاملة. لكل هذا يمكن القول بأن الكيان الاستيطاني يتحرك نحو الاعتماد على جيش نظامي، الدافع الأساسي للخدمة فيه هو الدوافع الشخصية، بدلاً من جيش الاحتياط الشعبي، وهذا التحول سيكون له أعمق الأثر على سياسات إسرائيل الداخلية والخارجية.

□□□

آين بريرا - لا خيار

لحظات نادرة هي التي يعبر فيها الوجدان الصهيوني عن مخاوفه وقلقه، وعما أسميه «الهاجس الأمني». الذي يرى الصهاينة أنه يعود إلى تجربة اليهود مع الاضطهاد على يد شعوب الأرض والطرد من أوطانهم، وهي التجربة التي وصلت إلى ذروتها مع الإبادة النازية لليهود. أما أعداء

اليهود فهم يقولون: إن الهاجس الأمنى سببه جبن الشخصية اليهودية وحرصها الشديد على الحياة الدنيا! ومثل هذه الأطروحات تفترض وحدة اليهود وأنهم كيان مستقل عما حولهم.

ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن الهاجس الأمنى عند المستوطنين الصهاينة لا يختلف عن الهاجس الأمنى الذى يشعر به كل المستوطنين فى كل الجيوب الاستيطانية، ومصدره هو الخوف من السكان الأصليين الذين اغتُصبت أرضهم، والذين قد يسهبون فى أية لحظة للمطالبة بها ولطرد المغتصبين. هذا ما حدث للمستوطنين الأمريكيين البيض فى أمريكا الشمالية، وهذا ما حدث لهم فى أستراليا ونيوزيلندا والجزائر وجنوب إفريقيا. انظر على سبيل المثال لهذه المقطوعة الوصفية: «كان الرجال يمسكون المحراث بإحدى أيديهم والبندقية بالأخرى، وكانوا يُعَدّون من المحظوظين إن لم يتلف عدوهم المتوحش نتاج عملهم الشاق إما فى الحقول أو فى مخزن الغلال».

إن هذه المقطوعة تقدم لنا صورة مُزارع مُسلح يعمل فيما أسميه «الزراعة العسكرية»، أى الزراعة الاستيطانية، وهى الزراعة التى تختلط فيها مهنة الزراعة بمهنة القتال، فهى زراعة تتم على أرض مغتصبة، يقف أصحابها الأصليون على حدودها يقرعون الأبواب بلا هوادة.

والمقطوعة السابقة مقتبسة من قصة قصيرة أمريكية «دفن روجر ملفن» لناثانيال هوثورن، كتبها فى منتصف القرن التاسع عشر، ويصف فيها المستوطنون البيض فى أمريكا الشمالية. ولكنها أيضًا تصلح لوصف المستوطنين الصهاينة ولمؤسسات إسرائيل الزراعة العسكرية مثل الكيبوتس.

الهاجس الأمنى إذن ليس له جذور يهودية وإنما جذوره استيطانية. وهذا ما أدركه بعض أعضاء النخبة السياسية الحاكمة، وكثير من الأدباء

الصهاينة (والخطاب الأدبى [على عكس السياسى] يفصح عن مكنونات النفس البشرية وهواجسها لأنه يعبر عن كيان الإنسان ولا وعيه. أما فى حالة الخطاب السياسى، فالمتحدث عادةً ما يأخذ حذره، ويراقب كلامه فلا يُظهر ما يبطن).

وقد فعل موشيه ديان عكس هذا تمامًا، فى الخطاب الذى ألقاه فى أبريل ١٩٥٦ أمام قبر صديقه الشاب روى روتبرج، ضابط الأمن فى إحدى الكيبوتسان (ناحال أوز)، والذى لقى مصرعه على يد الفدائيين الفلسطينيين. وكلمة ديان تستحق أن نقتبسها بأسرها، فهى لحظة صدق نادرة:

«فجرَ أمس قُتل روى. أعماه هدوء الصباح الربيعى ولم ير هؤلاء الذين طلبوا حياته المختبئة خلف الأحراش.

دعونا اليوم لا نلقى اللوم على القتلة. ما الذى يمكن أن نقوله ضد كراهيتهم البشعة لنا؟ ثمانى سنوات الآن وهم يقيمون فى معسكرات اللاجئين فى غزة، ويرون بأم أعينهم كيف ننقل لوطننا الأراضى والقرى التى امتلكوها وامتلكها أجدادهم من قبل.

علينا أن نطلب دم روى من بيننا وليس من بين عرب غزة. كيف أغمضنا أعيننا ورفضنا أن ننظر بواقعية إلى مصيرنا، ونرى قدر جيلنا بكل وحشيته؟ هل يمكن أن ننسى أن هذه المجموعة من الصغار، القاعدة فى ناحال أوز، تحمل على أكتافها بوابات غزة الثقيلة؟

ما وراء أحراش الحدود يبرز بحر من الكراهية والثأر: أثر يتطلع لليوم الذى سيقوم فيه الهدوء بكسر حدة حذرنا، اليوم الذى نذهب فيه للسفراء المنافقين الذين يطالبوننا بإلقاء سلاحنا. علينا، وعلينا وحدنا. يصرخ دم

روى من جسده المغدور، لأننا أقسمنا آلاف المرات أن دماءنا لن تُسفك هدرًا. إلا أنه بالأمس فقط قاموا بإغوائنا، وسمعنا وصدقنا.

دعونا اليوم نراجع أنفسنا. نحن جيل الاستيطان وبدون عمود الصلب وفوهة البندقية لن يمكننا زراعة شجرة أو بناء بيت. دعونا لا نخشى الاطلاع على الكراهية التى تستهلك وتملأ حياة المئات (الآلاف) من العُرب الذين يعيشون حولنا. دعونا لا نغفى طرفنا حتى لا تضعف أسلحتنا. هذا هو نصيب جيلنا. هذا خيارنا - أن نكون مستعدين ومسلحين، قساة خشنين - وإلا سقط السيف من يدنا وقصرت أعمارنا.

إن روى الشاب الذى رحل من تل أبيب ليبنى بيته عند بوبات غزة ليكون طليعة لشعبه - أعمى النور فى قلبه بصره، فلم يسر وميض السيف. أصم الحنين للسلام أذنيه ولم يسمع صوت القاتل يترصده. وأثبتت بوابات غزة أنها ثقيلة على كتفيه، وتغلبت عليه.

والكلمة حزينة ولكنها ليست مأساوية، وإنما قدرية، وهى ترى أن الإسرائيلى هو الضحية، وأن العرب هم المعتدون. ولكن مهما كان الأمر فقد ساد بين الإسرائيليين اصطلاح «آين بريرا»، أى لا خيار، أى أن على المستوطنين الصهاينة أن يحاربوا - يحاربوا دائمًا - يحاربوا أبدًا ضد عدو لم يهدأ له بال، لا فى عام ١٩٤٩ ولا فى عام ١٩٥٩ ولا فى عام ١٩٩٩.

وفى هذا الإطار لاحظ الكاتب الإسرائيلى بن عيزر أن الإسرائيليين الشباب الذين يخدمون فى الجيش يشعرون أن أهلهم يقدمون قربانًا على مذبح الدولة، هذا الوثن الأعظم، الذى شبهه أحد الحاخامات المعادين للصهيونية، بأنه مثل العجل الذهبى، فهى - كما قال الشاعر - تضحية علمانية لإسحق (المقابل التوراتى لسيدنا إسماعيل). ولنتخيل سيدنا إبراهيم يقوم بذبح ابنه، ولكنه لا يؤمن بإله.

وقد تحدث الشاعر حاييم جورى بمرارة عن أن كل إسرائيلى يولد «وفى داخله السكين الذى سيذبحه» ثم أضاف إن تراب إسرائيل لا يرتوى، «فهو يطالب بالمزيد من المدافن وصناديق الموتى». ومرة تبدو الدولة الصهيونية مثل الوثن الأصم المتعطش للدماء.

إن الإحساس بالضياع قد تعمق فى الإنسان الإسرائيلى لا بسبب «تراثه الصهيونى» وإنما بسبب وضعه الاستيطانى، وهو وضع أودى به وأدخله فى حروب مستمرة. انظر على سبيل المثال لأغنية مائير باناى، وهى أغنية جميلة حزينة تعبِّر بشكل دقيق عن تساقط الشرعية الصهيونية وإحساس المستوطنين بذلك:

كلهم ذاهبون إلى مكان ما،
يرنون للمستقبل العذب،
أما أنا، فأستيقظ فى الصباح
وأركب الحافلة رقم ٥ المتجهة للشاطئ،
الحافلة مليئة بالدخان،
وعجوزان،
والكمسارى،
وهناك كتابة على حائط أسمنتى:
ماذا حدث للدولة؟
انظر إلى الدولة وانظر إلى الأسمنت!
تغنّى الطيور «صباح الخير»
لعله يمكننى أن أطير معها بعيدًا، ولا أسقط.

إن الأغنية تعبر عن الإفلاس التام عن عبث المحاولة.

ولا شك فى أن الهاجس الأمنى والإحساس بالقدرية وخيبة الأمل قد تعمق بعد انتفاضة الأقصى والاستقلال. ألم تكن نقطة الانطلاق الصهيونية هى أن إسرائيل «أرض بلا شعب»، فما بال هؤلاء الرجال والأطفال والنساء والشيوخ يلقون بالحجارة، بل ويطلقون النار، عليهم، ألم يكن من المفروض أن يكونوا غائبين؟

□□□

هل ستنهار إسرائيل من الداخل؟

هل ستنهار إسرائيل من الداخل من تلقاء نفسها، بسبب أزمتها وتناقضاتها الداخلية الحادة؟ كثيرًا ما يُطرح هذا السؤال، وللإجابة على هذا السؤال سنذكر بعض الإحصاءات ذات الدلالة الاجتماعية الخاصة بالتجمع الصهيونى والتى تبين معدلات التأكُل الداخلى. من المعروف أن مؤسسة الكيبوتس كانت هى العمود الفقرى للتجمع الصهيونى. فمعظم أعضاء النخبة السياسية الحاكمة بل والثقافية كانوا من خريجيها (حتى عام ١٩٧٧). ولكن الكيبوتس تعرض لكثير من الأزمات وتغيَّر طابعه العام، بل وفقد شيئًا من طابعه الجماعى العسكرى. وقد نشرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢ يناير ٢٠٠٠) ما يلى:

أعلنت أمس هيئة مكافحة المخدرات أن تعاطى المخدرات الخفيفة فى مزارع الكيبوتس قد تضاعف خلال خمس سنوات حيث قام ٢٣,٥٪ من أبناء الكيبوتس ممن تراوحت أعمارهم بين ١٨ - ٣٠ سنة بتعاطى مخدرات خفيفة خلال عام ١٩٩٨ مقابل ١١,٤٪ تعاطوا الحشيش والماريجوانا خلال عامى ١٩٩٢ - ١٩٩٣. وكان البحث قد أجرى فى ٢٢ كيبوتسًا وتشمل ٦٦٢ فردًا بناءً على طلب من هيئة مكافحة المخدرات.

وماذا عن المجتمع الإسرائيلى ككل؟ أشارت معطيات جديدة نُشرت فى تل أبيب إلى تفاقم ظاهرتى معاقرة الخمر وتعاطى المخدرات بين صفوف تلاميذ المدارس الإسرائيليين. وذكرت صحيفة معاريف (٥ يونيه ٢٠٠٠) أن استطلاعًا خاصًا أجرته وزارة العمل والرفاه الاجتماعى الإسرائيلية لحسابها مؤخرًا أظهر أن ٣٧٪ من تلاميذ صفوف العاشر فى المدارس الإسرائيلية معتادون على تناول الخمر وأن ٨٪ من التلاميذ المعتادين على «الشرب» أبلغوا أنهم يستهلكون مرارًا فى المساء الواحد ستة كئوس من الخمر.

من جهة أخرى يتضح من معطيت صادرة عن «مجلس سلامة الطفل فى إسرائيل» أن ارتفاعًا بنسبة ٣٠٪ قد سُجل خلال عام ١٩٩٩ على عدد الشباب الإسرائيليين القاصرين الذين وُجهت إليهم تهمة الإتجار بالمخدرات.. حيث قُدِّم فى عام ١٩٩٨ ما مجموعة ٤١٧ لائحة اتهام ضد شبان ضُبطوا يمارسون تجارة المخدرات وحيازتها لغير أغراض الاستهلاك الذاتى، وقد ارتفع عدد لوائح الاتهام المماثلة الموجهة فى عام ١٩٩٩ إلى ٥٥٦ لائحة اتهام.

والحياة العائلية فى التجمع الصهيونى فى حالة تأكُل، فقد ذكرت جريدة معاريف (٢٥ يناير ٢٠٠٠) أن من بين كل ٣ حالات زواج يكون مصير حالة واحدة منها الطلاق. وقد طرأت زيادة بنسبة ١٥٪ فى عدد حالات الطلاق بإسرائيل منذ عام ١٩٩٠. واستمرت هذه الزيادة أيضًا خلال السنة الميلادية الماضية حيث سُجلت زيادة بنسبة ١٪ فى عدد حالات الطلاق (نحو ٨,٦٠٤ حالات). وتتصدر منطقة تل أبيب «قائمة الطلاق» حيث وقعت بها ٣,٠١٦ حالة طلاق عام ١٩٩٩ بزيادة قدرها ٢١٪ مقابل عام ١٩٩٨.

وقد ذكر معلق هاآرتس ٩ مايو ٢٠٠٠ أن عدد السيدات اللاتى أنجبن خارج إطار الزواج ارتفع من واحد لكل مائة حالة إنجاب فى السبعينات إلى ١,٨ لكل مائة حالة إنجاب فى عام ١٩٩٤. وفى نفس الشهر أشارت جريدة يديعوت أحرونوت إلى أنه قد طرأ زيادة بنسبة ٥٠٪ فى عدد حالات الاعتداء الجنسى على الأطفال داخل الأسرة، كما طرأت زيادة بنسبة ٢٥٪ فى عدد حالات الجرائم الجنسية التى يتعرض لها الصغار خارج نطاق الأسرة فى عام ١٩٩٩.

والتأكل الأسرى عادةً ما يؤدى إلى تزايد معدلات العنف بين الأطفال والشباب. وبالفعل ذكرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢٤ مايو ١٩٩٩) أن الإحصاءات تشير إلى معدلات عالية من العنف فى كل المجالات وجميع المراحل السنية وكل شرائح السكان. وكشف كثير من التلاميذ عن تعرضهم للعنف اللفظى والبدنى. ويعتبر العنف البدنى هو الأكثر ذيوعًا بين تلاميذ المدارس الابتدائية بينما يقل معدله مع اقترابهم لسن البلوغ. واكتشف الباحثون أن الاعتداءات البدنية البسيطة هى الأكثر انتشارًا وإن كان معدل السلوك المتطرف ليس هينًا.

وأضافت الصحيفة أن أكثر من ٥٠٪ من تلاميذ الصفوف من السادس إلى العاشر كانوا مشتركين فى العنف بصورة ما. وأكثر من ٦٠٪ من التلاميذ اشتركوا فى أعمال بلطجة تجاه زملاء لهم أو كانوا ضحايا لأعمال عنف. واشترك حوالى ١٥٪ : ٢٠٪ فى مستويات أكثر خطورة من العنف وأصيب حوالى ١٤٪ خلال مشاجرات وكانوا فى حاجة إلى علاج طبى.

وفى محاولة تفسير ظاهرة العنف نُشر مقال فى جريدة هاتسويه (٧ أبريل ٢٠٠٠) بعنوان «فناء مدرسة أم ساحة قتال؟» يبين أن العنف بين الشباب لم يأت من فراغ بل إنه تغذى من العنف ذى المستوى المرتفع

فى مجتمع البالغين وبصفة خاصة من اللامبالاة تجاه مظاهر العنف فى السلوك الإسرائيلى.

ثم نأتى أخيرًا للشذوذ الجنسى، ورغم أن اليهودية الحاخامية التقليدية تحرِّمه، إلا أن معظم المذاهب الدينية اليهودية المعاصرة مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة، قد تقبلته وقننت له بل أنشأت مدارس دينية خاصة لتخريج الحاخامات الشواذ جنسيًا. وقد أبرم حاخام إصلاحى عقد زواج بين رجلين أمام حائط المبكى عام ١٩٩٨، وكان يُعدُّ انتصارًا لحرية الرأى.

والشذوذ الجنسى أصبح مقبولاً فى المجتمع الإسرائيلى. خذ على سبيل المثال بيغيك، الذى يلبس دبلة الزواج الآن، فهو سيتزوج من صديقه العام المقبل. يقول بينيك (كما جاء فى ملحق صحيفة هآرتس ١٤ أبريل ٢٠٠٠): وضع الشواذ جنسيًا فى إسرائيل الآن أفضل من الناحية القانونية والتشريعية وهو من أفضل الأوضاع على مستوى العالم. نحن متساوون تقريبًا مع الدول «المتقدمة» فى العالم مثل: الدنمارك وهولندا، فلا يوجد فى إسرائيل قانون يمنع أن تكون شاذًا جنسيًا، ولا يوجد قانون يمنع اللواط. بالعكس هناك قانون المساواة فى فرص العمل تقوم المحاكم بدراسته ويروع أصحاب الأعمال عن التمييز ضد الشواذ. فى كل مرة يحاولون التمييز ضدنا تصدر المحاكم حكمها لصالحنا. وبالإضافة إلى ذلك نحن فى طريقنا نحو إصدار قوانين التبنى التى تسمح للشواذ بتبنى الأطفال. وهو يعتقد بأن الشواذ وحلفاءهم من أعضاء منظمات حقوق الإنسان سينجحون خلال عشر سنوات فى أن يكون التشريع الإسرائيلى عادلاً تمامًا، بما فى ذلك الاعتراف بالزواج بين الشواذ.

ولعل تقبل المجتمع الإسرائيلى للشذوذ الجنسى يظهر فى أن عدد السحاقيات فى إسرائيل اللاتى أنجبن أطفالاً (من خلال عمليات معملية

مختلفة) هو الأعلى فى العالم (هآرتس ٩ مايو ٢٠٠٠)، ولعل هذا يعود إلى محاولة الجيب الاستيطانى تجاوز أزمته الديموجرافية.

والآن بعد أن ذكرنا هذه الأرقام والإحصاءات يمكننا أن نطرح السؤال الذى طرحناه فى بداية المقال، هل هذا يعنى أن المجتمع الإسرائيلى سينهار من الداخل، كما يمنى البعض نفسه؟ الإجابة على هذا ستكون بالنفى القاطع للأسباب التالية:

١ - مقومات حياة التجمع الصهيونى لا تنبع من داخله وإنما من خارجه، فهو مدعوم ماليًا وعسكريًا وسياسيًا من الولايات المتحدة والعالم الغربى والجماعات اليهودية فيه، ولذا فهو لا يمكن أن ينهار من الداخل!

٢ - يتسم المجتمع الإسرائيلى بالشفافية وبالتالى حينما تتضح ظواهر سلبية فإنه يقوم بدراستها والتصدى لها أو التكيف معها.

٣ - توجد مؤسسات ديموقراطية وعلمية يمكن لكل قطاعات السكان فى التجمع الصهيونى أن يقدموا الحلول من خلالها.

٤ - ثبت أن كثيرًا من المجتمعات يمكنها أن تعيش فى حالة أزمة عشرات بل مئات السنين، طالما أنه لا يتحداها أحد من الخارج. وأعتقد أن الحاسوب (الكومبيوتر) يساهم فى هذه العملية، إذ يمكن للإنسان المتفسخ بشريًا أن يستمر فى العمل من خلاله، وأن يطلق الصواريخ التى تصيب أهدافها بدقة بالغة حتى لو كان شاذًا جنسيًا أو تعاطى الخمور والمخدرات فى الليلة السابقة.

إن القضاء على الجيب الاستيطانى لا يمكن أن يتم إلا من خلال الجهاد اليومى المستمر ضده، وما نذكره من عوامل تأكل فى التجمع الصهيونى هى عوامل يمكن توظيفها لصالحنا، كما أنها تبين لنا حدود عدونا وأنه ليس

قوة ضخمة لا تُقهر، لكنها فـى حـد ذاتـها لا يمكنـها أن تـودى بـه أو أن تؤدى إلى انهياره.

يجب ألا تخدعنا الأرقـام الصمـاء وألا نتصـور أنـها الحقيقـة، فالأرقـام مجرد حقائق، والحقيقة غير الحقائق، فهى ثمرة اجتهاد إنسـانى، وليـس مجرد تلقٍ ببغائى. واجتهادنا فى قراءة الحقائق يؤكد أن الجهاد ضد العدو ضرورة.